

الامراء التنوخيون و الحملات الصليبية

د. عباس أبو صالح

مع اشتداد الصراع والنزاعات الداخلية بين مختلف القوى الإسلامية، خلال النصف الثاني من القرن الخامس للهجرة (الحادي عشر للميلاد)، ظهر في أوروبا خطر جديد أخذ يهدّد سلامة الدولة الإسلامية في المشرق. كان العالم الإسلامي آنذاك يمر في مرحلة خطيرة من التفكك السياسي والتجزئة، فالخلافة العباسية كانت رازحة تحت سلطان السلاجقة، والسلاجقة كانوا على نزاع مع الفاطميين، ودولة الإسلام في الأندلس انقسمت إلى دويلات متنازعة متناحرة، الأمر الذي ساعد الصليبيين على تجريد حملاتهم على المشرق الإسلامي. فكان على مختلف القوى الإسلامية التصدي للخطر الجديد، ولكنها عجزت عن الانتصار على الحملة الصليبية الأولى. ذلك أن النزاع الذي كان قائماً بين السلاجقة والفاطميين، وقيام إمارات إسلامية مستقلة في بعض مدن الساحل، وما خلفه ذلك النزاع من ضعف عسكري في الجانب الإسلامي جعل الأمراء التنوخين، كسائر القوى الإسلامية، يتخذون موقف الدفاع لا الهجوم من الغزو الصليبي، إذ عند مرور القوات الصليبية الأولى في ساحل بيروت عام (٤٩٣ هـ/ ١١٠٠ م) لم تلق مقاومة من قوات الفاطميين^(١). غير أن تلكؤ الحكام الفاطميين عن مقاومة الصليبيين لم يدفع التنوخين إلى اليأس والاستسلام، بل لجأوا في العام التالي إلى عرقلة مسيرة التقدم الصليبي عند حدود الإمارة التنوخية. ووقفوا بقيادة أميرهم عضد الدولة الأرسلافي إلى جانب شمس الملك دقاق السلجوقي حاكم دمشق، عندما حاول الأخير اعتراض طريق تقدم بدوان (بلدوين الفرنجي) في العام نفسه عند نهر الكلب. ولكن بدوان تمكّن من اختراق الحاجز وأكمل طريقه إلى القدس^(٢).

وإذ فشلت المحاولة الأولى فإن التنوخين لم يتوانوا عن التصدي للتقدم الصليبي بأنفسهم مرة ثانية، وذلك على

الرغم من قلة عددهم مقارنة بالقوات الصليبية الزاحفة. وتقدم الأمير التنوخي على رأس قوة جديدة لقطع الطريق على جيش ريموند دوتولوز الصليبي عند نهر الكلب. غير أن خطة الأمير التنوخي فشلت بسبب صغر حجم قواته أمام القوات الصليبية الزاحفة، خاصة وأن القائد الصليبي ريموند هذا كان قد استنجد بزميله بدوان، فأجبر الأمير عضد الدولة ومن كان معه من الرجال على التراجع إلى بيروت والتحصن فيها. غير أن شجاعة الأمير التنوخي في تحدي الصليبيين نالت إعجاب شمس الملك دقاق وتقديره، فكافأ الأمير وأضاف إلى ولايته في بيروت والغرب إمارة صيدا، وطلب منه تحصين المدينتين تحسباً للمستقبل^(٣).

ولكن احتلال مدن الساحل بقي هدفاً رئيسياً للصليبيين من أجل تأمين بقائهم في الشرق الإسلامي. وما إن أطل عام (٥٠٤ هـ/ ١١١٠ م) حتى رجع الصليبيون لاحتلال بيروت فحاصروها براً وبحراً. وصمد التنوخيون بقيادة عضد الدولة في وجه الحصار، وتعذر على بدوان ملك الفرنجة اقتحامها خاصة بعدما وصل الأسطول الفاطمي لنجدتها^(٤). ولم يكن من السهل على القوات الصليبية الغازية أن تضرب حصاراً فعالاً على المدينة من التلال المجاورة التي تقع في قلب الإمارة التنوخية، إلا بعدما استنجد بدوان بقوات صليبية من الشمال وقوات صليبية أخرى من الجنوب وداهموا معاً، وفي وقت واحد، مقاطعة الغرب المحاذية لبيروت. وكان اكتساح القوات الصليبية لمقاطعة الغرب مفاجأة لسكانه حيث أحرق الفرنجة قرى الغرب بعد نهبها وقتلوا وأسروا من وجدوه من الناس. ولم ينج بحسب إحدى الروايات المتأخرة سوى الغائبين والمختبئين^(٥). وتقدمت إذ ذاك جيوش الفرنجة إلى بيروت وضيق عليها الحصار بمساندة المراكب الجنوية. ثم اقتحمتها بعد حوالي شهرين من الحصار، فنكّلت بالأهالي وقتلت وأسرت عدداً من الأمراء التنوخين، ضربت أعناقهم وكان بينهم الأمير عضد الدولة نفسه^(٦).

وبعد سقوط بيروت بيد الفرنجة، تقدمت القوات الصليبية الزاحفة نحو مدينة صيدا وضربت حولها حصاراً برياً وبحرياً بمساعدة الأسطول النرويجي. ولما كانت أمثلة القتال في بيروت وفطائع الفرنجة فيها ما زالت ماثلة في أعين الناس، وبما أن الأسطول الفاطمي المربط في صور تخلف عن نجدة المدينة، ارتأى أعيانها طلب الأمان من الفرنجة مقابل مبلغ من المال فوافق الفرنجة على مبلغ عشرين ألف دينار مقابل ذلك، ودخلوا المدينة بعد أن قرّ منها قسم من الأهالي وعلى رأسهم حاكمها الأمير مجد الدولة (الذي كان من آل عبدالله) فرجع بدوره إلى منطقة الغرب. إلا أن مقاطعة الغرب كانت قد دفعت ثمناً غالياً في حربها ضد الصليبيين وأصبحت على حد ما نقله الشدياق في تاريخه وأخبار الأعيان، «قاعاً صفصفاً لا يسمع فيها إلا البكاء والعيول»^(٧).

سياسة الصمود

وعلى الرغم من هول النكبة التي حلت بالإمارة التنوخية فقد تمكّن التنوخيون من النهوض بإمارتهم من جديد.

وكان الأمير مجد الدولة قد بدأ بترميم ما تهدّم في المنطقة المنكوبة^(٨). ثم أن ظهر الدين أتابك دمشق (٤٩٧ - ٥٢٢ هـ / ١١٠٣ - ١١٢٨ م) أقرّ الأمير مجد الدولة حاكماً على منطقة الغرب وعزّز مركزه العسكري من أجل الصمود في وجه الخطر الصليبي. وتعزز المصادر المتأخرة إلى هذه الفترة بالذات قدوم الأمير معن - جد الأمراء المعنيين - بعشيرته إلى جبال لبنان المشرفة على الساحل من أجل شد أزr الأمراء التنوخيين، فنزل في الشوف^(٩).

وتحالف آل معن مع التنوخيين للقيام بهذه المهمة وتصاهروا، وانضم إلى هذا الحلف عشائر جديدة برزت أسماؤها فيما بعد كآل نكد وآل تلحوق، فاشتد بهم ساعد الأمير مجد الدولة، وأخذ يشن الغارات على معاقل الصليبيين من جديد، إلى أن استشهد أثناء القتال في أرض البرج (برج البراجنة) سنة (٥٣١ هـ / ١١٣٧ م). وثبت التنوخيون وحلفاؤهم في مواقعهم الجديدة ضد الصليبيين خلال فترة النزاع الأتابكي - الزنكي على بلاد الشام (٥٢١ - ٥٤٩ هـ / ١١٢٧ - ١١٥٤ م) ولم يشن عزمهم ذلك النزاع، الذي جعل دمشق تحت رحمة الصليبيين رداً من الزمن، عن التصدي للفرنجية ضمن حدود ولايتهم والقيام بغزوات جديدة ضدهم. وكان الأمير بختر بن عضد الدولة - الملقب بناهض الدين أبي العشائر - قد استأنف هذه الغزوات فعلاً بتأييد مجبر الدين آبق حاكم دمشق، ودعمه. وجرت بينه وبين الفرنجية موقعة عين التينة الشهيرة عند نهر الغدير جنوب بيروت سنة (٥٤٩ هـ / ١١٥١ م). وانتصر الأمير بختر على الفرنجية في هذه المعركة، وقُتل عدد كبير من الصليبيين فيما انهزم الباقون إلى بيروت^(١٠).

وبعد سقوط إمارة الرها، التي أقامها الصليبيون في الشمال، بيد عماد الدين زنكي أتابك الموصل سنة (٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م)، عمل الصليبيون على تجريد حملة جديدة على المشرق الإسلامي من أجل الاستيلاء على دمشق نفسها. ولما كانت الإمارة التنوخية المدخل الاستراتيجي الذي يفصل بين بلاد الشام الداخلية وحدود الدولة الصليبية على الساحل، عمل أتابكة دمشق على توطيد علاقاتهم بالأمراء التنوخيين الذين أظهروا كفاءة عسكرية في تصديهم للفرنجية عند حدود ولاية بيروت. وأصدر أتابك دمشق السلجوقي مجبر الدين آبق منشوراً باسم الأمير بختر التنوخي يقره بموجه على الإمارة في مقاطعة الغرب ويقطعه عدداً من القرى^(١١). وبحسب نظام الإقطاع الذي كان سائداً في عهد الحكم السلجوقي في المشرق الإسلامي، كان الإقطاعي يُمنح حق جباية الأموال الأميرية من مناطق معينة مقابل خدماته العسكرية، إذ كان صاحب الإقطاع يدفع من هذه الأموال رواتب جنوده ويحتفظ بالباقي لنفسه^(١٢). وقد ورد في منشور الأمير بختر هذا: «أن (يبقى) على رسومه المستمرة وقاعدته المستقرة من الضياع المنسوبة إلى رسمه... وأن يتناول ما يخص الخاص السعيد منها (أي الأموال الأميرية) بحيث يصرفه في مصالحه ويتقوى به على الخدمة»^(١٣).

وفي الوقت الذي نجح فيه التنوخيون بالمحافظة على حدود إمارتهم ضد الخطر الصليبي، كان حليفهم مجير الدين أتابك دمشق يعمل جاهداً للتصدي لهجمات الفرنجة على بقية أنحاء مملكته ولكنه حقق نجاحاً محدوداً، واضطر على ما يبدو لمهادنتهم إلى أن انتزع نورالدين زنكي منه مدينة دمشق وتوحدت بلاد الشام تحت سلطانه ولقب بالملك العادل نورالدين.

التنوخيون في عهد الدولة الزنكية

وما أن استأنف الملك العادل جهاده ضد الفرنجة حتى انضم إليه التنوخيون بقيادة الأمير زهر الدولة كرامة بن بختر التنوخي فأقرهم الأتابك نورالدين زنكي على إمارة الغرب وأقطع أميرهم قرى جديدة في البقاع ووادي التيم وإقليم الخروب وذلك بموجب منشور يعود لسنة (٥٥٦ هـ/ ١١٦١ م)^(١٤)، وهذا نصه:

« لما هاجر الأمير زهر الدولة شجاع الملك جبالُ الأمر أبو العزّ كرامة بن بختر التنوخي أدام عزّه إلى الباب (بابنا) زيدَ علاه ولاد (ولاد) بالخدمة وتقرّب إليها وقصد الدولة العادلة والتمس الخدمة بين يديها تقبّل سعيه وأجيب إلى ملتصيه ورسم له إنشاء هذا المنشور مودعاً ذكر ما تأثّل له من الإرعاع (الإرعاء) والاحترام والاعزاز والإكرام يوضح ذكر من ديوان الاستيفاء المحروس حماه الله. والعدّة أربعين (أربعون) فارساً وما أمكنه وقت المهمّات الشريفة. وجهائهُ غالب قرايا (قرى) الغرب. ومن غير الغرب القنيطرة من البقاع. طهر (ظهر) حمار من وادي التيم ثعلبايا من البقاع أيضاً. برجة من صيداء. والمعاصر ومنها المعاصر الفوقاء. والدامور. وشارون. ومجدلبعنا وكفر عمّيه. التاريخ سابع شهر رجب سنة ستّة (ست) وخسين وخسمائة (١١٦١ م) ».

يتضح من هذا المنشور أن أتابك دمشق خصّص للأمير كرامة التنوخي معاشاً من « ديوان الاستيفاء » فضلاً عما يجنيه من الأموال الأميرية من إقطاعه وذلك مقابل تجهيز حامية لا تقل عن أربعين فارساً وما أمكنه « للمهمات الشريفة ». وقد تحصّن الأمير التنوخي في سرحول وأخذ يشن الغارات على « سنورية » بيروت الصليبية، فأقلق مضجع حكامها الفرنجة، حتى إن بعض هؤلاء فضّل آخر الأمر إرجاع « سنورية » بيروت للملك أورشليم الصليبي على أن يبقى مهدّداً من قبل التنوخين^(١٥).

إزاء مضايقة التنوخين للصليبيين في بيروت وجوارها، حاول حكام الفرنجة النيل منهم دون جدوى ولجأوا أخيراً إلى سياسة المصانعة والغدر وانتظروا حتى وفاة الأمير كرامة سنة (٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م) لتنفيذ هذه السياسة. وتروي المصادر أن حاكم بيروت الفرنجي أخذ يتودّد لأولاد بختر ويلطفهم حتى أنسوا به فدعاهم إلى وليمة عرس ابنه في بيروت. وما أن حضروا إلى المدينة حتى ألقى القبض عليهم وقتلهم جميعاً. وأرسل في الوقت

ذاته حلة صليبية إلى معاقلهم في منطقة الغرب، فهدمت حصن سرحول مقر الأمراء التنوخيين والذي يبدو أنه كان ساعته خالياً من المقاتلين وأحرقت بعض قرى الغرب قبل أن يتمكن الأمير علي بن مجتر من رد الصليبيين على أعقابهم ولم ينج من هذه المكيدة من أبناء الأمير كرامة التنوخي سوى الأمير حجي الذي تخلف عن حضور الوليمة بسبب صغر سنه^(١٦).

الأمراء التنوخيون والسلطان صلاح الدين الأيوبي

لم تحقق ضربة الصليبيين الغادرة لمعاقل التنوخيين في منطقة الغرب أي نجاح استراتيجي على الصعيد العسكري. فسرعان ما عاد التنوخيون إلى هذه المنطقة وعمروها ثانية. وقد ظلوا في مواقعهم الدفاعية إلى أن ظهر صلاح الدين الأيوبي على مسرح الأحداث في المشرق الإسلامي. وكان صلاح الدين وعمه شريكوه قد أرسلها الأتابك نورالدين زنكي لمساعدة الخليفة الفاطمي في مصر العاضد (٥٥٦ - ٥٦٧ هـ/ ١١٦٠ - ١١٧١ م) وذلك بعد تهديد الصليبيين للدولة الفاطمية. وتمكّن صلاح الدين من الوصول إلى منصب الوزارة سنة (٥٦٥ هـ/ ١١٦٩ م) واستطاع أن يسيطر على مقدّرات الدولة الفاطمية، ومن ثم القضاء على الخلافة الفاطمية الاسماعيلية. وبعد أن نجح صلاح الدين في ترسيخ سلطته في مصر وقضى على المذهب الاسماعيلي الشيعي فيها، وجّه اهتمامه إلى بلاد الشام وانتزع السلطة من يد الملك الصالح اسماعيل الذي خلف والده نورالدين في حكم دولة الأتابكة في دمشق سنة (٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م)^(١٧).

اتخذ صلاح الدين من دمشق عاصمة لدولته وقاعدة للانطلاق في جهاده ضد الصليبيين، واستطاع أن يوقع بهم هزيمة كبرى في حطين سنة (٥٨٣ هـ/ ١١٨٧ م) أدت إلى انهيار مملكة الفرنجة في القدس. واسترجع المسلمون سائر المعاقل الصليبية باستثناء صور. ولما تقدّم السلطان صلاح الدين لاحتلال مدينة بيروت لاقاه الأمير جمال الدين حجي التنوخي على رأس وفد من رجاله إلى خلده مرحباً بقدومه وسار معه لحصار المدينة^(١٨). ويذكر المؤرخ التنوخي صالح بن يحيى، أنه لما فتح السلطان صلاح الدين مدينة بيروت «لمس بيده رأس حجي وقال له: هذا (ها) قد أخذنا تارك (ثأرك) من الفرنج فطيّب قلبك وأنت مستمر مكان أبيك واخوتك»^(١٩). ثم كرّس السلطان ولاية الأمير حجي بموجب منشور يقضي «بإجراء الأمير جمال الدولة حجي بن كرامة على ما بيده من جبل بيروت من أعمال الدامور - لما وصل إلى الخدمة السلطانية، وتحققنا ما جرى عليه من جانب الكفر (الكفار) خذلم الله - وهو ملكه وارثه عن أبيه وجده وهي سرحول، عين كسور، رمطون الدوير، طردلا، عند رافيل (عين دارفيل)، ومزارعهم. وذلك حباً متاً عليه وإحساناً إليه لمناصحته وخدمته ونهضته في العدو المشاغر له»^(٢٠).

لقد آلت زعامة التنوخيين أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي للأمير جمال الدين حجي بن كرامة البحري

التنوخي . ولكن السلطان صلاح الدين لم يجعل ولاية الأمير حجي هذه تشمل مدينة بيروت جرياً على عادة من سبقه من حكام المسلمين . وربما كان مرد ذلك هو صغر سن الأمير حجي من جهة وأهمية موقع بيروت من جهة ثانية، خاصة وأن صلاح الدين كان قد ضرب أسوار صيدا وجبيل لدى سماعه بقدوم الحملة الصليبية عام (٥٨٦ هـ / ١١٩٠ م)، ونقل مسلمي هاتين المدينتين وأمر بتحصينها وولى عليها أميراً غير تنوخي هو عز الدين أسامة^(٢١) .

أدّى نجاح السلطان صلاح الدين في استرجاع مدينة القدس ومعظم مدن الساحل - من الصليبيين - إلى ردة فعل عنيفة في أوروبا . فجهّز الأوروبيون حملة صليبية ثالثة تعتبر من أهم الحملات الصليبية بالنسبة لعدد المحاربين ولاشتراك عدد من حكام أوروبا فيها ، كإمبراطور ألمانيا وملك انكلترا وملك فرنسا . ودارت الحروب بين الصليبيين بقيادة ريكاردوس قلب الأسد ملك انكلترا والمسلمين بقيادة صلاح الدين . وتمكن الصليبيون من احتلال مدينة عكا، ولكنهم عجزوا عن احتلال القدس . وجرت مفاوضات بين الفريقين انتهت بالاتفاق على هدنة مدتها ثلاث سنوات على أن يكون الساحل، فيما عدا صيدا وبيروت وجبيل للفرنجية بينما تبقى البلاد الجبلية للمسلمين . ولكن صلاح الدين توفي في العام التالي، فانقسمت المملكة الأيوبية بين أبنائه واستأثر أخوه الملك العادل (ت ١٢١٨ م) بمصر . ورافق انقسام الدولة الأيوبية نزاع على السلطة مما أدّى إلى تضعف قوة المسلمين؛ فاستغل الفرنجية الصليبيون الفرصة، واستعادوا معظم ما خسروه من مدن الساحل بما فيها بيروت . وتذكر المصادر أن أسامة بن منقذ الذي سبق أن ولّاه صلاح الدين على بيروت سلّم المدينة للفرنجية بدون قتال فور سماعه بسقوط مدينة صيدا بيد الصليبيين، فلامه الناس واستحق لعنة المسلمين على تخاذله^(٢٢) . ولكن استيلاء الصليبيين من جديد على بيروت أثر بشكل واضح في وضع الإمارة التنوخية، ولم يعد يوسع التنوخيون وحدهم التصدي للاحتلال الصليبي في لبنان، في الوقت الذي كان فيه الأيوبيون يتلهّون بالصراعات الداخلية ويعملون على مهادنة الفرنجية . وأخذ حكام مدينتي صيدا وبيروت من الفرنجية يعملون على تحدي الأمراء التنوخيين ومحاولون مد نفوذهم إلى منطقة الغرب مما جعل الأمراء التنوخيين يشعرون على ما يبدو بالضيق إزاء هذا الوضع القائم . حتى إن حاكم الإمارة التنوخية آنذاك الأمير جمال الدين حجي كتب مرة إلى الملك العزيز عماد الدين عثمان (توفي ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م) ابن الملك العادل، يشكو الوضع القائم وتجاوزات الفرنجية، فطّيب العزيز قلبه ووعد به عدم تعرّض الصليبيين له^(٢٣) .

ويبدو أن عدم تدخل الأمراء التنوخيين في شؤون النزاع على الحكم الذي كان قائماً بين حكام الأسرة الأيوبية جعلهم يكسبون ثقة الأيوبيين . بل إن الأيوبيين تنافسوا فيما بينهم أحياناً على كسب ولاء الأمراء التنوخيين . ذلك أن تنافس الأيوبيين على حكم ولاية دمشق جعلهم، على ما يظهر، يعملون على كسب ولاء زعماء المناطق التابعة لها ومنهم التنوخيين^(٢٤) . وكان الحكام الأيوبيون يقرّون الأمراء التنوخيين حكاماً في مناطقهم . غير أن الصراع

الداخلي بين حكام الأسرة الأيوبية كان قد انتهى بموت الملك الصالح أيوب (٦٣٨ - ٦٤٧ هـ / ١٢٤٠ - ١٢٤٩ م) الذي قضى نحبه في المعركة التي جرت بين القوات الصليبية وقوات المسلمين في دياط (مصر) سنة (١٢٤٩ م). ذلك أن ممالك الصالح الأيوبي استطاعوا بقيادة عز الدين أيبك أن يتسلموا السلطة إثر مقتل ابن الصالح طوران شاه، وأن يؤسسوا دولة المماليك في مصر سنة (٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م). أما بلاد الشام فقد بقيت خلال هذه الفترة بيد الحكام الأيوبيين، إذ قام الملك الناصر يوسف الأيوبي (٦٤٨ - ٦٦٠ هـ / ١٢٥٠ - ١٢٦١ م) باحتلال دمشق فور تسلّم المماليك الحكم في القاهرة وهدّد باحتلال مصر نفسها. وإذا بالصراع الداخلي يتجدّد بين القوى الإسلامية، أي بين الحكام الأيوبيين في الشام وحكام المماليك في مصر. وكان لا بدّ لهذا الصراع من أن يترك آثاره السلبية على الإمارة التنوخية التي كانت في موقع تجاذب بين قطبي الصراع هذا.

التنوخيون بين الأيوبيين والمماليك

وأخذ كل من قطبي الصراع - الأيوبيون والمماليك - يعمل على استمالة الأمراء التنوخيين في لبنان إلى جانبه. وكانت زعامة التنوخيين في هذه الحقبة قد آلت إلى جمال الدين حجي الثاني وسعد الدين خضر، أبناء الأمير نجم الدين محمد وقريبهما الأمير زين الدين صالح بن علي بن بختّر من الأمراء التنوخيين. ولم يستطع هؤلاء الزعماء، على ما يبدو، الوقوف على الحياد إزاء الصراع الإسلامي الداخلي، وذلك على غرار سياسة أسلافهم من قبل، بل ربما كان وجود غير زعيم في الإمارة التنوخية جعل حياد التنوخيين أمراً مشكوكاً فيه من قبل طرفي الصراع. وفي كلتا الحالتين يبدو أنه كان هنالك تنافس بين الملك الناصر الأيوبي وسلطان المماليك عز الدين أيبك على كسب ولاء الأمراء التنوخيين. وكان جمال الدين حجي الثاني قد تسلّم منشوراً من الملك الناصر سنة (٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م) يقطعه بموجه قرى معينة في منطقة الغرب^(٢٥). وفي المقابل كان أخوه سعد الدين خضر قد تسلّم في فترة لاحقة منشوراً من السلطان أيبك، يقطعه بموجه قرى معينة في الشوف ووادي التيم وإقليم الخروب. وعلى الرغم من الاتفاق الذي جرى بين المماليك والأيوبيين خلال هذه الحقبة والذي قضى بإعطاء بلاد الشام إلى الملك الناصر وإعطاء مصر للمماليك، فإن محاولة سلطان المماليك الاتصال ببعض الأمراء التنوخيين أدّى إلى استياء الملك الناصر في دمشق، فعزم على الاقتصاص من أمراء الغرب؛ وأرسل لهذا الغرض حملة عسكرية حشرت في عدادها عشائر البقاع وبلاد بعلبك، فالتقى التنوخيون هذه القوات في قرية عيتات من قرى الغرب وانتصروا عليها، واجبروها على التراجع. وكان الأمير زين الدين صالح التنوخي الذي يكتنّى بأبي الجيش والمنتسب إلى الفرع الأرسلائي ممن قادوا هذه المعركة الظافرة^(٢٦).

أظهرت معركة عيتات سنة (٦٥٣ هـ / ١٢٥٥ م) أن الصراع ظل محتدماً بين دولتي الأيوبيين والمماليك الإسلاميتين في بلاد الشام. ولكن محاولة الناصر فرض إرادته على التنوخيين دلّت من خلال معركة عيتات أنها

محاولة فاشلة. ذلك أن موقف التنوخيين الحيادي إبان هذا الصراع لم يكن على ما يبدو نابعاً من مصلحتهم الخاصة فقط، بل لأنه كان منسجماً في الوقت ذاته مع مصلحة الجانب الإسلامي عامة. فالمصلحة الإسلامية كما كان يراها الأمراء التنوخيون آنذاك كانت تقضي برص الصفوف ضد الخطر الصليبي الذي عانوا منه الكثير، وليس بتجاهل هذا الخطر وإشغال القوى الإسلامية بمعارك جانبية كما فعل الناصر الأيوبي من خلال حملته العسكرية على منطقة الغرب التنوخية.

الأمراء التنوخيون والزحف المغولي على الشام

ومع إدراك الأمراء التنوخيين لمساوى سياسة المحاور هذه بين القوى الإسلامية المختلفة فإنهم كانوا غير قادرين على رأب الخلافات القائمة بين هذه القوى إذ ظلّ الوضع مضطرباً في بلاد الشام خلال فترة الحكم الأيوبي. غير أن ظهور الخطر المغولي من الشرق وتدمير الجحافل المغولية لعاصمة الخلافة بغداد سنة (٦٥٧ هـ/ ١٢٥٨ م) واقتراب هذا الخطر من دمشق دفعت الأمراء التنوخيين للتحرك باتجاه جديد. وتأرجح وضع الإمارة التنوخية خلال هذه المرحلة الحرجة وهي محاطة بأربع قوى رئيسية، منها قوتان عدوتان: الصليبيون على الساحل والمغول في شمال سورية؛ وقوتان إسلاميتان هما: الأيوبيون في الداخل والمماليك في مصر، وقد كانتا كما ذكرنا في نزاع مستمر. ولم يكن بوسع الأمراء التنوخيين الوقوف على الحياد إزاء الخطر المغولي على بلاد الشام، بل كان عليهم دعم الجانب الإسلامي رغم عجزهم عن رأب الصدع الذي أصاب الجبهة الإسلامية، غير أنهم أدركوا في الوقت ذاته أن انحيازهم إلى جانب إسلامي واحد كان فيه الكثير من المجازفة ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا تجاهل الملك الأيوبي في دمشق خاصة وأن مسaire بعضهم في السابق لسلطان المماليك عز الدين أيبك أدت إلى تجريد حملة تآديبية ضدهم من قبل الملك الأيوبي صدها في عيتات، كما ذكرنا. ولهذا قصد الأمير جمال الدين حجي الثاني دمشق ليعلن تأييده للأيوبيين ولكنه لم يصلها إلّا بعد أن سقطت بيد المغول ودخلها كتيبة قائد هولاكو^(٢٧). فأذعن الأمير جمال الدين للأمر الواقع بعد أن سارع بعض الأمراء الأيوبيين للاستسلام وبعضهم الآخر لمهادنة المغول؛ واجتمع الأمير التنوخي بالقائد المغولي مستهدفاً بذلك إنقاذ إمارته من الاجتياح المغولي. ونجح بهذه المهمة إذ أقره القائد المغولي أميراً على مقاطعة الغرب بموجب منشور تاريخه (٦٥٨ هـ/ ١٢٦٠ م)^(٢٨).

غير أن موقف سائر الأمراء التنوخيين ظل على تحفظه تجاه الحكم الجديد في دمشق، فلم يكن بوسع هؤلاء تأييده، كما لم يكن بمقدورهم محاربته منفردين. ولكن عندما قرّر المماليك في مصر التصدي للزحف المغولي في بلاد الشام أصبح من الضروري إعادة النظر في موقفهم هذا. وما إن وصل المماليك إلى فلسطين، حتى كان الأمير زين الدين صالح بن علي التنوخي قد لحق بقريه الأمير جمال الدين إلى دمشق قاصداً التشاور معه بشأن الموقف

الذي يمكن اتخاذه لانقاذ بلادهم . فالحياد إزاء الفريقين لم يكن ممكناً ، أما الانحياز إلى إحدى القوتين فكان يعني المجازفة بمصيرهم فيما لو خسر الجانب الذي قد ينضمون إليه . وهنا ارتأى الأميران التنوخيان أن يبقى أحدهم ، وهو الأمير جمال الدين بجانب كتبغا . فيما ينضم الآخر ، أي الأمير زين الدين ، إلى جانب المماليك بحيث يكون على حد قول صالح بن يحيى : « أيُّ من انتصر من الفريقين كان أحدهما معه ، فيسد خلة رفيقه وخلة البلاد قصداً بذلك إصلاح الحال »^(٢٩) .

ويفهم من كلام المؤرخ التنوخي هنا أن انقسام التنوخيين هذا كان يهدف لإنقاذ الإمارة التنوخية من الاجتياح المغولي فيما لو انتصر المغول على المماليك ، كما يهدف إلى إنقاذ إمارتهم في حال انتصار المماليك . ولهذا انحاز الأمير زين الدين إلى جانب بيبرس المملوكي ، وحارب معه في موقعة عين جالوت سنة (٦٥٨هـ / ١٢٦٠ م) ضد المغول . وبرز الأمير زين الدين في المعركة وأعجب المماليك برميهِ ، فأخذوا « يقدمون له الشباب من تراكيشهم (جمعهم) . وانجلت المعركة بانتصار ساحق للمماليك على المغول ، فاستولوا على بلاد الشام دون أن يتعرضوا لمناطق الإمارة التنوخية بسوء . وبعد انتصار المماليك على التتار (المغول) وسيطرتهم على المناطق الداخلية من بلاد الشام وجّهوا اهتمامهم لاحتلال المناطق الساحلية التي كانت لا تزال بيد الصليبيين .

ومرة أخرى برز موقع الإمارة التنوخية خلال هذا الصراع الإسلامي - الصليبي . فكُلّف الأمراء التنوخيون من جديد مراقبة الفرنجة عند ثغور بيروت وصيدا . ولكن موقف سلطان المماليك ، الظاهر بيبرس ، ما لبث أن تبدّل إزاء بعض الأمراء التنوخيين وغداً مليئاً بالشك والحذر ربما بسبب مجاورة الإمارة التنوخية للمناطق الصليبية . وعززت المنافسات المحلية هذه الشكوك خاصة بعدما بلغت آذان السلطان وشاية من خصوم هؤلاء الأمراء . واتهم هؤلاء الوشاة ، أولئك الأمراء بأنهم كانوا على اتصال بوالي طرابلس الفرنجي ، فأمر السلطان بسجن كل من الأمراء جمال الدين حجي الثاني وأخيه سعدالدين خضر ونسيبهما الأمير زين الدين صالح . ويبدو أن هذا كان تدبيراً احتياطياً من قبل المماليك إلى أن يتسنى للسلطان بيبرس احتلال المدن الساحلية التي كانت بيد الصليبيين^(٣٠) .

ولكن بيبرس توفي سنة (٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م) قبل أن يسترجع تلك المدن الساحلية ، ولم يطلق سراح الأمراء الثلاثة . ويبدو أن روح النقمة والفوضى أخذت تسود منطقة الغرب التنوخية خلال هذه الفترة نتيجة لسجن هؤلاء الأمراء . وأبرز الحوادث التي وقعت آنذاك حادثة اغتيال قطب الدين السعدي في قرية كفرعميه من قرى الغرب ، والذي أذى مقتله إلى تجريد حملة تأديبية على منطقة الغرب سنة (٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م) . واشترك في تلك الحملة عساكر المماليك من نيابتي بعلبك والبقاع ولايتي بيروت وصيدا ، فانتقموا من سكان منطقة الغرب الآمنين وهدموا منازلهم وسبوا الأولاد والنساء . غير أن خليفة الظاهر بيبرس أمر بإطلاق سراح الأمراء

التنوخين المسجونين، ربما لأنه تأكد أن التهم التي ألصقت بهؤلاء كانت محض افتراء، خاصة وأن السلطان السابق كان قد عقد صلحاً مع الفرنجة في طرطوس^(٢١). ولعلّ الوضی التي استشرت في الإمارة التنوخية خلال هذه الفترة من جهة، والظلم الذي وقع له رجال الحملة المملوكية بسكانها من جهة ثانية كانت من الأسباب التي دعت ابن بيبرس السلطان بركة خان (٦٧٦ - ٦٧٨ هـ/ ١٢٧٧ - ١٢٧٩ م) إلى الإفراج عن الأمراء المسجونين، وإلى رد ما سلب ونهب من منطقة الغرب إلى أصلها^(٢٢).

استئناف الجهاد ضد الصليبيين

تابع المماليك في عهد السلطان قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ/ ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) سياسة الجهاد ضد الصليبيين. ولكن السلطان قرّر قبل أن يستأنف القتال اتخاذ بعض الإجراءات التي من شأنها تقوية سلطة الدولة المركزية في بلاد الشام موجّهاً اهتمامه نحو استرجاع مدينة طرابلس تاركاً المدن الساحلية الأخرى التي كانت بيد الصليبيين لفترة لاحقة^(٢٣). واقتضت هذه السياسة تحريد أمراء الجبال من إقطاعاتهم ومنهم الأمراء التنوخين، لتوزّع على أمراء «حلقة» طرابلس مقابل مساهمتهم في حماية المدينة بعد استرجاعها من الفرنجة^(٢٤).

وسقطت طرابلس ثم جبيل بيد السلطان قلاوون. ولكنه توفي قبل أن يسترجع جميع المدن الساحلية من الصليبيين، تاركاً المهمة لابنه الملك أشرف خليل (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٠ - ١٢٩٣ م). ورأى الملك الأشرف خليل، بعد إنجاز هذه المهمة، أنه لا غنى لدولة المماليك عن مقاتلي الإمارة التنوخية، من أجل دفاع أفضل عن هذا الجزء المهم من مملكتهم، وأن دفاع هؤلاء يمكن أن يكون أكثر فاعلية فيما لو ظلوا تحت إشراف زعمائهم المحليين أي الأمراء التنوخين. وبموجب هذه السياسة استعاد الأمراء التنوخيون إقطاعاتهم التقليدية في عهد المماليك^(٢٥).

الأمراء التنوخيون وحملات المماليك على كسروان

تمكّن السلطان المملوكي خلال عام (٦٩١ هـ/ ١٢٩١ م) من طرد الصليبيين نهائياً من المشرق الإسلامي، وذلك بعد سقوط عكا آخر معقل للفرنجة. غير أن الفضل في ذلك يعود إلى حكام بلاد الشام من الزنكيين، وإلى الأيوبيين والمماليك وحلفائهم المحليين كالتنوخين^(٢٦). ويبدو أن منطقة كسروان التي كانت تقطعها يومذاك أغلبية من الشيعة الإمامية لم تساهم في عملية الجهاد ضد الفرنجة، ولم تعلن في الوقت ذاته ولاءها لحكم المماليك. ولعلّ موقف الشيعة هذا، كان السبب المباشر لتجريد السلطان أشرف خليل حملته الشهيرة على منطقة كسروان سنة (٦٩١ هـ/ ١٢٩١ م)، ولكن هذه الحملة فشلت في إخضاع الكسروانيين^(٢٧). أما التنوخيون فقد تعاونوا مع الحكم المملوكي (الإسلامي السني) في دمشق، فأعاد لهم السلطان الأشرف مكانتهم السابقة التي فقدوها زمن

أبيه السلطان قلاوون^(٣٨). وحدث خلال هذه الفترة أن هاجم التتار (المغول) المنطقة الشمالية من بلاد الشام وانتصروا في بادئ الأمر على جيش السلطان الناصر محمد بن قلاوون بالقرب من حصص، وبينما كانت فلول الجيش المملوكي المنهزم تتراجع إلى جبال لبنان اعترض سبيلها أهالي كسروان وجزير من الشيعة، وألحقوا بها الأذى. أما التنوخيون فقد ساعدوا هؤلاء الجنود^(٣٩). فلما طرد المماليك التتار من بلاد الشام كافأ سلطان المماليك زعيم التنوخيين الأمير ناهض الدين البحري التنوخي وجعله أمير طبلخاناه^(٤٠).

وما لبث المماليك أن جرّدوا حملة تأديبية على منطقة كسروان بقيادة نائب السلطنة على دمشق الأمير جمال الدين أقوش الأفرم سنة (٧٠٠ هـ/١٣٠٠ م)، فتصدّى لها الكسروانيون ولكنهم هُزموا أمام قوات المماليك، وأجبروا على إعادة ما سبق أن غنموه من جيش المماليك، إضافة إلى مبلغ من المال أدّوه غرامة لنائب السلطان^(٤١). بيد أن حملة المماليك هذه لم تخضع الكسروانيين بشكل نهائي، واضطر نائب المماليك جمال الدين أقوش الأفرم هذا، إلى تجريد حملة جديدة لإخضاعهم سنة (٧٠٥ هـ/١٣٠٥ م) فانتصر عليهم وخرّب ضياعهم^(٤٢). ونزح سكان بعض هذه القرى الشيعية إلى مناطق أخرى كالبقاع وجزير. ويذكر صالح بن يحيى التنوخي أن الأمراء التنوخيين اشتركوا في تلك الحملة إلى جانب المماليك، وقتل من أمرائهم الأميران نجم الدين محمد وأخوه شهاب الدين^(٤٣). بيد أن اشتراك بعض الأمراء التنوخيين في تلك الحملة لم يكن على ما يبدو موضع تقدير لدى المماليك، إذ سرعان ما جرّد الأمراء البحريون التنوخيون من إقطاعاتهم التقليدية عندما قام المماليك بمسح جديد للأراضي السلطانية في بلاد الشام أو ما سمي آنذاك (بالروك)^(٤٤). غير أن زعيم التنوخيين آنذاك الأمير ناصر الدين الحسين استطاع أن يقنع نائب السلطنة في دمشق بضرورة إبقاء الإقطاعات القديمة في أيديهم، وهي الإقطاعات التي توارثوها عن أجدادهم، فوافق السلطان على ذلك واستثنى الأمراء التنوخيين من التغييرات الجديدة، مما عزّز من مكانتهم في بلاد الشام^(٤٥).

وكان المماليك قد عملوا على ملء الفراغ العسكري في منطقة الأزواق في جوار نهر الكلب للمحافظة عليها من التعديات. ونافس هؤلاء التركمان التنوخيين وأتباعهم من الدروز في مهمة الدفاع عن الثغور الساحلية، إذ اشترك هؤلاء في التدابير العسكرية التي وضعها المماليك لحماية الثغور البحرية من غارات الفرنجة^(٤٦). وبموجب تلك التدابير العسكرية أسند إلى أجناد حلقة بعلبك مهمة المحافظة على ثغور بيروت، فكانت تتناوب على الحراسة «إبدالاً». واشترك التنوخيون في نظام الإبدال هذا بتسعين فارساً. ويبدو أن عشائر التركمان استظهرت عدة وعدداً على التنوخيين خاصة بعد وفاة الأمير ناصر الدين الحسين (٧٥١ هـ/١٣٥٠ م) وتوالي غارات الفرنجة على المدن الساحلية، إذ حاول التركمان استغلال هذه الفرصة لمد نفوذهم إلى منطقة الغرب التنوخية. ويذكر صالح بن يحيى في تاريخه أنه بعد غارة ملك الفرنجة في قبرص على ثغر الاسكندرية سنة (٧٦٧ هـ/١٣٦٥ م)،

أمر المماليك بتشديد الحراسة على السواحل . وحل الأمراء التنوخيون العبد الأكبر في ذلك ، « فازداد تعب أمراء الغرب (الأمراء التنوخيون) ، وكثرت كلفتهم على العساكر وكابدوا الأمور بمشقة زائدة وعناء »^(٤٧) .

واستغتم زعماء التركمان هذه الفرصة ، فقدموا لنائب السلطنة سيف الدين بيدمر الخوارزمي عرضاً بتقديم ألف رجل مساهمة منهم في الحملة التي كان يعدّها لغزو جزيرة قبرص ، وذلك مقابل تحويل إقطاعات التنوخيين لهم . قَبِلَ بيدمر الخوارزمي هذا العرض وجرّد التنوخيين من إقطاعاتهم وأعطاهم إلى أمراء التركمان . غير أن الأمراء التنوخيين لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام تصرف بيدمر ، هذا ، بل ذهب أميران منهم إلى القاهرة ، هما سعد الدين خضر ونسيه سيف الدين يحيى بن زين الدين ، وطلبا من القاضي علاء الدين بن فضل الله العمري سنة (٧٨٨ هـ / ١٣٨٦ م) - وهو كاتب السر في الدولة - التوسط لهم في الأمر لدى سلطان المماليك . لتبى القاضي العمري طلب الأميرين التنوخيين ونجحت وساطته لدى السلطان واستعاد التنوخيون إقطاعاتهم التقليدية في منطقة الغرب . ومن الكلام المؤثر الذي قاله القاضي العمري في حضرة السلطان : « إن هؤلاء من غرس الملوك الأوائل ، إن كان فيهم نفع فقد استحقوا به إقطاعهم وإن لم يكن فيهم نفع فحاشا الله أن يكون معروفاً أسدوه الملوك الأوائل يبطل في أيام الأمير الكبير »^(٤٨) .

التنوخيون في عهد دولة المماليك البرجية

استمر الأمراء التنوخيون في إقطاعاتهم ومهماتهم العسكرية حتى سنة (٧٨٢ هـ / ١٣٨٢ م) أي حتى قيام دولة المماليك البرجية في عهد السلطان الظاهر برقوق . وكان السلطان برقوق قد واجه معارضة قوية في بداية حكمه . غير أن السلطان الجديد حظي بدعم نائب الشام بيدمر الخوارزمي ودعمه ، كما أيده الأمراء التنوخيون . أمّا زعماء التركمان في كسروان وممالك طرابلس فقد انضموا إلى المعارضة . وفي محاولة من السلطان برقوق لتثبيت سلطته على سائر أنحاء بلاد الشام ، عمل على عزل بعض أمراء المماليك ، فجابه تمرداً من المماليك الأتراك بقيادة يلبغا الناصري وتمريغا المعروف بمنطاش وسُمّي أتباعهم بالمنطاشية . وتمكّن الشائرون عام (٧٩٢ هـ / ١٣٨٩ م) من خلع السلطان برقوق ، الأمر الذي أخرج وضع التنوخيين بسبب تأييدهم للسلطان . ومما زاد في حرجة موقفهم هذا ، أن المنطاشيين ولّوا على بيروت حاكماً من جانبهم ، يُدعى أرغون المنطاشي . واستغل زعماء التركمان من بني الأعمى هذه الفرصة لإضعاف التنوخيين . ولكنهم لم يحققوا نجاحاً يذكر في ذلك ، إذ سرعان ما تغيّر الوضع السياسي لصالح التنوخيين ، واستطاع السلطان برقوق أن ينتصر على خصومه في موقعة شقحب بالقرب من دمشق بعد أقل من سنة على خلعهم . وكان الأمراء التنوخيون قد اشتركوا في القتال إلى جانب السلطان . بيد أن تركمان كسروان استغتموا فرصة غياب الأمراء التنوخيين في دمشق وهاجروا منطقة الغرب التنوخية وقتلوا تسعين نفرًا من سكانها ، كما نهبوا ممتلكات التنوخيين في بيروت . ثم إن التركمان استغلّوا

فرصة ذهاب الأمراء التنوخيين في السنة نفسها إلى مصر ليؤجوا قرى الغرب، فقتلوا أربعين نفرًا ونهبوا قرى عيناب وعين عنوب وشملان وعيتات وغيرها من القرى^(٥١). بعد أن هذه المصاعب التي واجهها التنوخيون انتهت بعد استعادة السلطان برقوق لكرسي حكمه. وعمل السلطان بعد رجوعه إلى السلطة على الاختصاص من معاينة في بلاد الشام، ووجه حملة تأديبية ضد تركمان كسروا. انتشرت فيها عشائر البقاع والأمراء التنوخيون وهامسوا معاً «أزواق» التركمان وقتلوا من أعينهم^(٥٢).

واستقر وضع الإمارة التنوخية بعد هذه الحادثة في بلاد الشام. انتقلت إلى أيديهم حتى إن بعض أمراءهم كالأمير عز الدين صدقة ابن الأمير شرف الدين بن قتيبة، في فترة المماليك على سائر حكام المحليين في بلاد الشام، فشمل حكمه المنطقة الممتدة من حدود طرابلس في الشمال حتى سمر في فلسطين^(٥٣). واستمر التنوخيون في عهد سلاطين الدولة البرجية يقومون بنهجتهم التقليدية. أي المحافظة على ولاية بيروت، وأحياناً على ولاية صيدا ضد غزوات الفرنجة وأعمال قرصنتهم. ومن أشهر مواقعهم مع الفرنجة خلال هذه الفترة، موقعة بيروت سنة (٧٨٤ هـ/١٣٨٢ م) إذ نزل القراصنة الجنوبيون إلى البر وكادوا يسيطرون على المدينة، فتصدى لهم الأمير سيف الدين يحيى التنوخي، وأجبرهم على الانسحاب^(٥٤). ثم كان لهم موقعة أخرى مع الفرنجة في الدامور سنة (٨١٦ هـ/١٤١٣ م)^(٥٥).

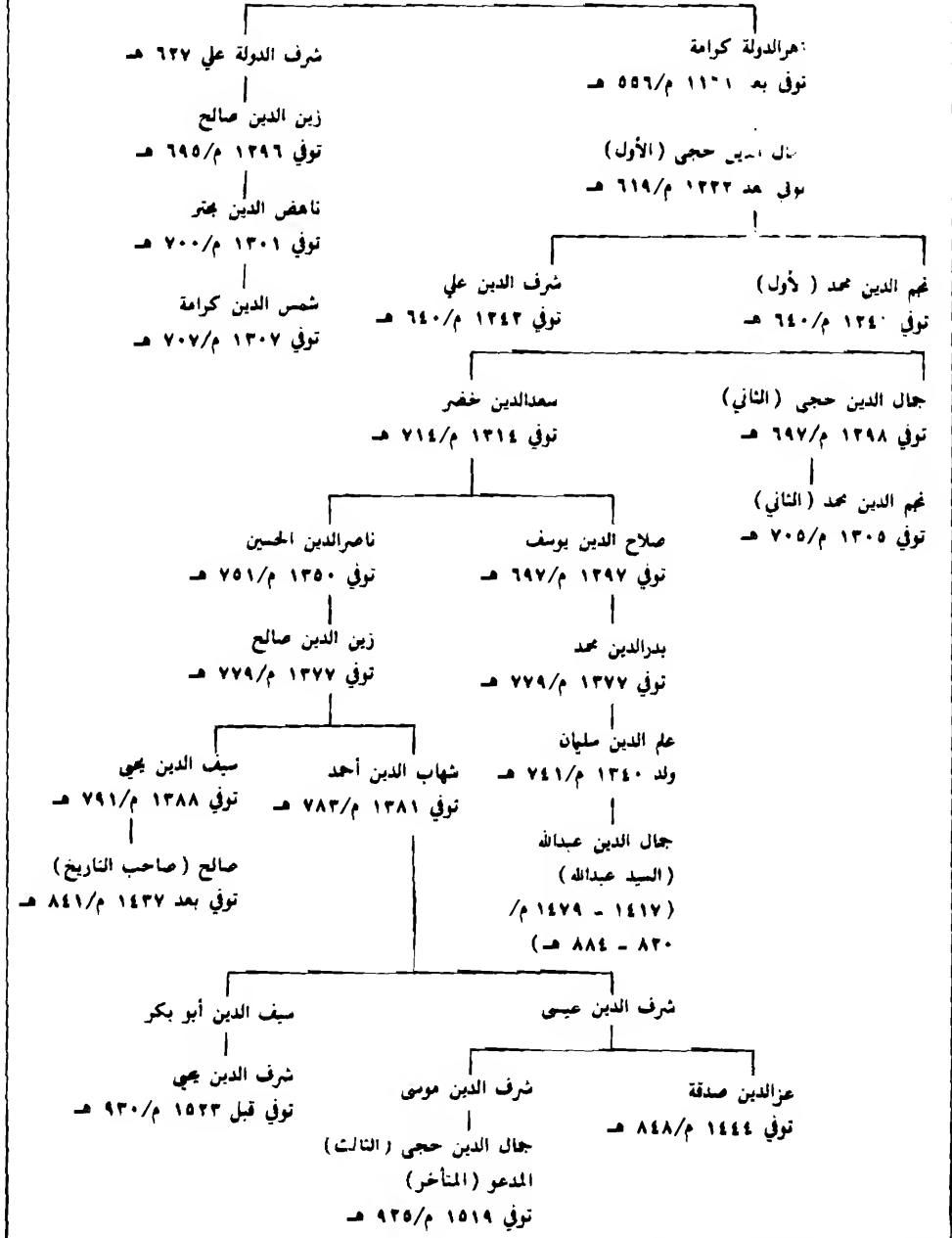
ولم تقتصر مهمة التنوخيين العسكرية، خلال هذه الفترة، على حماية مناطقهم ضد غزوات الفرنجة بل تعدتها للمساهمة في الأعمال العسكرية التي قام بها بعض سلاطين المماليك البرجية في الخارج، فاشتركوا في حرب المماليك ضد تيمورلنك، كما شاركوا المماليك في حملتهم الشهيرة على جزيرة قبرص سنة (٨٢٩ هـ/١٤٢٥ م) والتي انتهت باحتلالها^(٥٦).

وحافظ الأمراء التنوخيون على موقعهم السياسي والعسكري المرموق هذا، خلال الفترة المتبقية من حكم المماليك في بلاد الشام، ووقفت إلى جانبهم عدة عشائر داخل الإمارة التنوخية نفسها، كانت بمثابة اليد اليمنى للأمراء التنوخيين. ونذكر من هذه العشائر آل عبدالله وآل أبي الجيش وآل نكد، وبنو شوزان جدود آل عبد الملك وحاده - الذين تولوا حراسة ثغر الدامور - وغيرهم، على أن أبرز هؤلاء آل معن في الشوف. وبانتهاء العهد المملوكي سنة (٩٢٢ هـ/١٥١٦ م) وبداية العهد العثماني انتهى دور الإمارة التنوخية في لبنان، ليحل مكانه عهد جديد، هو عهد الإمارة المعنية. وقد تميز الحكم التنوخي في لبنان، كما رأينا، بسياسة الولاء الثابت للدولة العربية الإسلامية، وهي سياسة قامت في الأساس على أداء دور، له أهميته في الدفاع عن جزء مهم من تلك الدولة، ضد كل غزو أجنبي وأخصه البيزنطي والصليبي خلال القرون الوسطى. لقد جاء التنوخيون إلى لبنان من أجل القيام بهذه المهمة، فقاموا بأعبائها خير قيام وكان لهم الفضل في المحافظة على سلامة وعروبة ذلك الجزء المهم من الدولة العربية الإسلامية لقرون طويلة.

أعيان الأمراء البحريين التنوخيين (★)

ناهض الدولة أبو العثائر بختر

بعد ٥٦١ هـ / ١١٦٥ م



(★) راجع المصلي، منطلق تاريخ لبنان، ص ١٣٩.

الحواشي

- (١) William of tyre, A History of the Deeds Done Beyond the Sea (Colombia University Press, 1943) Vol 1, PP. 331 - 332
- (٢) 422-423. pp, Ibid . كذلك: حيدر الشهابي، الفرر الحسان في أخبار أبناء الزمان، نشر نعيم مغنّب (القاهرة مطبعة السلام، ١٩٠٠) ج ١، ص ٣١٧ - ٣١٨ .
- (٣) ابن القلانسي، السّذيل . ص ١٣٨ - ١٣٩، كذلك راجع: السّجل الأرسلائي، ص ١٩٩ وراجع أيضاً:
- S. Runciman, A History of the Crusades (Colombia, Colombia University Press, 1951) Vol 1, PP. 323-324
- (٤) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ١٦٧ - ١٦٨ .
- (٥) الشهابي، المرجع السابق، ج ١، ص ٣١٧ - ٣١٨، كذلك الشدياق، المرجع السابق، ج ٢ - ص ٢٩٤ .
- (٦) ابن القلانسي، المصدر السابق، ص ١٦٩ - ١٧١ . كذلك . William of tyre op. cit. pp. 485-486
- وقد ورد في السّجل الأرسلائي أساء الأمراء الذين استشهدوا في قتال الإفرنج إبان حصار بيروت، وهم: الأمير عضد الدولة علي أمير صيدا وبيروت وجليلها . الأمير سالم بن الأمير ثابت بن الأمير معروف . الأمير عبدالحليم بن الأمير علي وولده الأمير مساعد وأخوه الأمير عبدالحليم بن الأمير علي . وأسر الأمير خضر وولده الأمير الحسين . وأسر الأمير صدقة بن الأمير طلحة، والأمير علي بن الأمير طعمه وفي اليوم الثاني قتلوا مع الأسرى، المأسورين في وقائع الغرب، وهم الأمير ثابت بن الأمير معروف وحفيده الأمير عبدالحليم بن الأمير فراس بن الأمير ثابت . أمّا الأمراء المقتولون في وقائع الغرب فهم:
- الأمير موسى بن الأمير إبراهيم وأولاده الصغار والأمير القاسم بن الأمير هشام، وولده الأمير إدريس، والأمير مودود بن الأمير سعيد وولده . والأمير مالك بن الأمير مصطفى بن الأمير عون، والأمير عبيد بن الأمير معضاد بن الأمير حاسم . والأمير يحيى والأمير يوسف ولدا الأمير الخضر بن الأمير الحسين . وقتل الأمير بن الأمير حليم بن الأمير يوسف بن الأمير فوارس الفوارسي وأولاده وأخوته وبنو عمه فانقطعت بهم سلالة بني فوارس . راجع السّجل الأرسلائي (الروض الشقيق)، ص ١٨٦ - ١٨٧ .
- (٧) السّجل الأرسلائي، ص ١٨٧ . كذلك، William of tyre, op. cit, PP 486-488 . كذلك: الشدياق، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٩٥ .
- (٨) كان الأمير مجدالدولة حاكماً على صيدا من قبل الأمير عضد الدولة التنوخي، أمّا نسبة مجدالدولة إلى آل عبدالله فقد وردت في السّجل الأرسلائي (راجع السّجل، ص ١٩٩) .
- (٩) الشدياق، المرجع السابق، ج ١، ص ٢٨٩، كذلك:
- Kamal Salibi, «the Buhturids of the Garb; Medieval lords of Beirut and Southern Lebanon» Arabica, Vol. VIII (Jan, 1961), P.80.
- (١٠) السّجل الأرسلائي، ص ١٨٧، والشدياق، ج ٢، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ .
- (١١) راجع نص المنشور، يحيى، المصدر السابق، ص ٤٥ .
- (١٢) إبراهيم طرخان: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى (القاهرة، دار الكتاب العربي، ١٩٦٨، ص ١٩٤ .
- (١٣) يحيى، المصدر السابق، ص ٤٥ .
- (١٤) المصدر ذاته، ص ٤٩ .
- (١٥) الصليبي، منطلق تاريخ لبنان، ص ١٠٤ .
- (١٦) يحيى، المصدر السابق، ص ٥١ .

(١٧) لمزيد من التفاصيل، راجع عبد المنعم ماجد: ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها في مصر (القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٨) ص ٤٦٢ - ٤٩٦. كذلك؛

Andrew, S. Ehrenkreutz, Saladin (Newyork, state University of Newyork, 1972 PP. 60-117.

(١٨) لا يذكر صالح بن يحيى في تاريخه، أن الأمير حجي قد اشترك عملياً في الحصار العسكري، إذ كان الأمير لا يزال صغير السن.

(١٩) يحيى، المصدر السابق، ص ٥١.

(٢٠) المصدر ذاته، ص ٥٢. وتقع هذه القرى في منطقة الغرب من لبنان وبعضها خراب اليوم.

(٢١) عز الدين أسامة بن منقذ هذا، هو غير مؤيد الدولة أبو المظفر أسامة بن منقذ الكتامي صاحب كتاب الاعتبار، والذي توفي سنة (٥٨٤ هـ/١١٨٨ م). أي قبل استرجاع الفرنجة لبيروت.

(٢٢) يحيى، المصدر السابق، ص ٢٥.

(٢٣) المصدر ذاته، ص ٥٣.

(٢٤) الصليبي، المرجع السابق، ص ١١٠، ويذكر قصة النزاع بين الملك الأفضل الأيوبي وبين عمه الملك العادل سيف الدين على ولاية دمشق، والذي انتهى بتخلع الملك الأفضل عن كرسي الحكم، إذ عمل الأخير على كسب دعم الأمير حجي التنوخي في محاولته لاسترجاع الولاية، راجع يحظ، المصدر السابق، ص ٥٢ - ٥٣. كذلك، راجع.

محمد علي مكّي: لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني (بيروت، دار النهار، ١٩٧٧). ص ١٧٠ - ١٧١.

(٢٥) راجع نص المنشور، يحيى، المصدر السابق، ص ٥٥ - ٥٦.

(٢٦) المصدر ذاته، ص ٦٤. والشدياق، ج ١، ص ٢٧٠.

(٢٧) يحيى، المصدر السابق، ص ٥٦.

(٢٨) راجع نص المنشور، المصدر ذاته، ص ٥٧.

(٢٩) المصدر ذاته، ص ٦٥.

(٣٠) يذكر صالح بن يحظ في تاريخه، أنه عندما حاول أحد الأمراء التوسط لدى السلطان بشأن هؤلاء المسجونين ردّ السلطان طلبه بقوله إنه: «ما أفرج عنهم ولا أذيعهم (أؤذيهم) حتى أقتم طرابلس وصيدا وبيروت».

(٣١) راجع فيليب حتي، تاريخ العرب (مطول) (بيروت، ١٩٧٤) ص ٧٤٧.

(٣٢) يحيى، المصدر السابق، ص ٧٦.

(٣٣) كان السلطان قلاوون قد عقد معاهدة صلح مع أميرة صور التي كانت تنتمي على بيروت أيضاً.

(٣٤) إن جند الحلقة في مفهوم التنظيم العسكري عند المماليك، هو قلب الجيش وهو من الفرسان ويمتص الإقطاعات، راجع طرخان، المرجع السابق، ص ١٤٨ و ١٧٦.

(٣٥) يحيى، المصدر السابق، ص ٨٤.

(٣٦) الصليبي، المرجع السابق، ص ١٢٣.

(٣٧) مكّي، المرجع السابق، ص ٣١٨ - ٣١٩.

(٣٨) يحيى، المصدر السابق، ص ٥٨.

(٣٩) المصدر ذاته، ص ٥٤.

(٤٠) أمير طبلخاناه، أي أن يكون يأمّره أربعون فارساً على الأقل.

(٤١) راجع تقي الدين أحمد المقرئ، كتاب السلوك (تحقيق مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٣٩) ج ١، قسم ٣، ص ٩٠٢ - ٩٠٣.

(٤٢) المصدر ذاته ج ٢، ص ١٥١٤.

(٤٣) يحيى، المصدر السابق، ص ١٠٠.

(٤٤) «الروك» اصطلاح أطلق في القرون الوسطى على عملية مسح الأراضي لتقسيمها ودراسة مواردها من أجل فرض الضرائب المناسبة عليها. من قبل الدولة.

-
- (٤٥) يحظ، المصدر السابق، ص ٩١ - ٩٢ .
- (٤٦) المصدر ذاته، ص ٣٤ - ٣٥ .
- (٤٧) المصدر ذاته، ص ١٦٨ .
- (٤٨) نفس المصدر ونفس الصفحة .
- (٤٩) راجع، السجل الأرسلائي ص ١٦٨
- (٥٠) يحيى، المصدر السابق، ص ١٩٧ .
- (٥١) ابن اسباط، تاريخ ابن اسباط (مخطوط) (مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت) ورقة رقم ١٦٥ .
- (٥٢) يحيى، المصدر السابق، ص ١٨١ - ١٨٢ .
- (٥٣) السجل الأرسلائي، ص ١٧٠ - ١٧١ .
- (٥٤) راجع في تفاصيل هذه الحملة ما ذكره صالح بن يحيى في تاريخه وقد اشترك بنفسه في تلك الحملة، كذلك تاريخ ابن اسباط (ورقة رقم ١٦٤ و١٧٦) .